

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

توطئة

هذا هو الكتاب الرابع في موسوعتنا ، وهو أول الأعمال المترجمة ، ترجمته عن الانكليزية ، وعنوان الكتاب الأصلي « السعي وراء الفترة الالفية السعيدة » ومؤلفه هو الاستاذ نورمان كوهن ، الذي ولد في لندن عام ١٩١٥ ، وشهر كاستاذ جامعي متخصص حيث درس في أكسفورد ثم في مختلف جامعات انكلترا وسكوتلندا وايرلندا ، وعندما أعاد طباعة كتابه هذا للمرة الثالثة عام ١٩٦٩ كان استاذًا زميلًا في جامعة سسكس في انكلترا ، وله عدة مؤلفات ، كان من أشهرها كتابنا الذي نقدمه الآن وكتاب آخر عن التآمر اليهودي العالمي حسبما ورد في كتاب « بروتوكولات حكماء صهيون » .

لقد عدلت بعض الشيء عنوان الكتاب الأصلي ومنحته عنوانًا جديدًا يتماشى مع القارىء العربي ، استخرجته من محتويات الكتاب ، وكما سلف بي وأشرت من قبل إن هذا الكتاب يأتي كتمم مفيد جدًا لمحتويات كتاب المدخل بأجزائه ، وفوائد هذا الكتاب تتخطى موضوع الحروب الصليبية لتفيد الباحث في تاريخ الاسلام بشكل عام ، وأكثر من هذا إنها تفيد في فهم ما يعرف الآن باسم الحركات الاصولية في مسيحية القارة الأوروبية ، هذه الحركات التي أسهمت بشكل فعال في تدمير النظام الماركسي في الاتحاد السوفيتي وفي أوربا الشرقية ، ولها تأثيرها النافذ على مختلف جوانب الحياة في الغرب الأوربي والشرق وفي الولايات المتحدة ، وهذه مسائل يحتاج القارىء العربي الى التبصر بها والتمعن .

- ١٤١٤ -

لقد بذلت كل جهد ممكن في المحافظة على روح الكتاب اثناء تأليفه
وذلت معظم العقبات التي تعلقست باستخدام الاصطلاحات
بالعربية، و فقط سميت الذين كانوا يضربون انفسهم بالسياط
وغيرها من الوسائل « باللطامين » على اساس ان اللطم في ايامنا
لايعتمد فقط على الاكف بل هناك السياط وحتى السلاسل المعدنية
ووسائل اخرى، و باستثناء التحرج امام هذا الاصطلاح ارى ان
ما تبقى لاليس به البتة، والله الموفق الى السداد .

من الله تعالى ارجو العون والتوفيق وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى اله وصحبه اجمعين .

دمشق ٢٠ شعبان ١٤١٣ . ١٢ شباط ١٩٩٣

تنويه

أعيد اخراج الصور بإن من المتحف البريطاني والمكتبة
الملكية البلجيكية ومعهد كورثولد للفنون والسكينة
ج • ب • سومز

وأبدي امتناني للأسستاز المتوفى غ • ر • أوست ولطبعة
جامعة كمبردج للسماح لي بالاقْتباس من ترجمه جون
بروميارد في

« الأدب والوعظ في انكلترا العصور الوسطى »

تمهيد لهذه الطبعة

لقد اتاح لي نشر الطبعة الثالثة من السعي وراء الفترة الألفية السعيدة الفرصة للقيام بمراجعة شاملة ، وقد مضى نحو ربع قرن تقريبا منذ ان بدأت العمل في هذا الكتاب وثلاثة عشر عاما منذ ان انتهيت منه وسيكون تعليقا متواضعا على التقدم العلمي او على مرونتي العقلية او كليهما القول بانني لم اجد شيئا فيه الآن يتطلب التعديل او التوضيح ، ففي الواقع اني وجدت الكثير ، ان في الطبعة الجديدة ثلاثة عشر فصلا بدلا من اثني عشر ومقدمة وخصائمه مختلفتان وقد تم تغيير فصلين بصورة جوهرية مع عدد لا يحصى من التغييرات التي جرت في مواضع مختلفة من الكتاب ، وقد يحب بعض القراء ان يعرف بتعابير عامة حجم ذلك ، ان التغييرات يمكن تلخيصها كما يلي

• في المقام الاول إن نتائج البحوث الجديدة قد اخذت في الحسبان

وما زال كتاب « السعي وراء الفترة الألفية السعيدة » الكتاب الوحيد في موضوعه أعني حول تقاليد الألفيين الثوريين والفوضوية الصوفية كما تطورت في أوربا الغربية بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر • ولكن كانت هناك اسهامات جديدة كثيرة تتراوح بين الموراد القصيرة والكتب الطويلة حول الظواهر الفزدية ، وحلقات تلك القصص ، وبشكل خاص صورة تلك الديانة الغامضة ، أعني الروح الحرة ، التي ملا فراغها جهود الاستاذ رومانو غارنييري Romana Guarnieri من روما ، وقد تضمنت هذه الجهود الكبيرة تعريف وتحقيق كتاب « مرآة الأرواح البسيطة » لمرغريت بويرت Marguerite porete ، وهو نص أساسي للروح الحرة يتمم بشكل يثير الإعجاب نصوص رانتر Ranter المتأخرة عنها كثيرا ويشكل ملحقا للكتاب الحالي •

قد انتج الأستاذ غارنيري أيضا طريقه التفهم والمعالجة الأقرب التي لم يحدث مثلها حتى الآن لتشكّل تاريخا كاملا للديانة في إيطاليا كما في شمال ووسط أوروبا ومعرفتنا بالثابوريث البكارتى Pakarti والاداميت Adamites في بوهيميا قد تعمقت بصورة مماثلة ليس فقط بسبب التدفق المستمر للدراسات الماركسية التي انبثقت من تشيكوسلوفاكيا، بل أيضا بالسلسلة المؤثرة والمنورة من المواد التي أضافها العالم الأمريكى الأستاذ هـوارد كمنسكى Houard Kaminsky ودمجت الاضافات الكبيرة للمعرفة الى جانب كثير من المعارف الصغيرة في الفصول ذات العلاقة من هذا الكتاب .

وحيث ان السعى وراء الفترة الألفية السعيدة لم يقصد به أبدا أن يكون تاريخا عاما للانشقاق الدينى أو الهرطقة في العصور الوسطى ، فإن معظم البحوث الجديدة في هذا المجال - وهي كثيرة - تترك المجادلة فيها دون مساس ، ومع ذلك فهي تجربة مثيرة للتفكير أن يقرأ مثل هذا المجال الواسع من الكتب الموثوقة مثل « الانشقاق والاصلاح في العصور الوسطى » الذي وضعه الأستاذ جفرى روسل Jeffrey russell « والهرطقة في اواخر العصور الوسطى » الذي وضعه الأستاذ غوردون ليف Gordonleff و« الاصلاح الجذري » الذي وضعه الأستاذ جورج وليمز وما من واحد من هذه الكتب لا يترآكب مع السعى وراء الفترة الألفية السعيدة في أكثر من فصلين ، ولكنها فيما بينها تقدم تاريخا فحما للانشقاق يمتد من القرن الثامن الى السادس عشر ، وبالنظر اليها في هذا المحيط الأوسع فإن الطوائف والحركات الموصوفة في هذا المجلد تبدو بوضوح أكثر كحركات استثنائية وبالغة التطرف في تاريخ الانشقاق الدينى ، وهي تشكّل الجناح المفرط في فوضويته ، وتوضح هذه المقدمة غرابتها في حين أن الفصل الجديد (٢) يظهر كيف أنها تتواءم مع الصورة الأكبر .

وكان التركيب الاجتماعى لهذه الطوائف والحركات والمحيط

الاجتماعي الذي عملت فيه قد جرى تبيانها بشكل واف في الطبعة الأولى ، وثبت أنه لاضرورة لاجراء أي تغيير في هذا المجال .
وربما يتسنى للمؤرخين الاقتصاديين بالبحث المفصل في الحالات الفردية ان يسلطوا ضوءا أكثر ، ولكن لايتوقع بالتاكيد شيء من التبادل الجاري للتعميم العقائدي بين المؤرخين الماركسيين وغير الماركسيين للهرطقة .

فلا شيء مثلا يمكن أن يكون أكثر عقما من المناقشة بين مؤرخين معينين في غرب وشرق ألمانيا حول ما إذا كانت الهرطقة يمكن أولا يمكن أن تفسر على أنها احتجاج من المحرومين من المزايا ، لأن المتقدمين على ما يبدو كانوا عاجزين عن تخيل كيف يمكن أن يأتي الانشقاق من الطبقات التي تتمتع بالمزايا ، وأفضل وقاية من مثل هذا الافراط في التبسيط هو بعض المعرفة بعلم اجتماع الدين ، وبهذه التقوية لايجتهد أن يتخيل المرء أن كل هرطقة العصور الوسطى كانت من نوع واحد تعكس النوع نفسه من عدم الرضى وتروق للقطاعات نفسها من المجتمع .

وإلى المدى الذي يتعلق بالثوريين الالفيين فإن أهمية مضمونها الاجتماعي يظهر في فصل بعد آخر في هذا الكتاب ، ولكنني أيضا حاولت تلخيصها بأوجز ما يمكن في الخاتمة ، والخاتمة في الواقع هي الجزء من الكتاب الذي جذب أغلب الاهتمام بين المجموع ، وخاصة أن كثرة التعليق الايجابي والسلبي قد اثارها الايحاء بأن القصة الواردة في هذا الكتاب قد يكون لها بعض العلاقة بالهيجان الثوري في فرنسا ، وقد نوقشت هذه الحجة مطولا ليس فقط في النظرة العامة والمواد ، بل أيضا وبشكل أكثر افادة في المناقشات العفوية في الجامعات البريطانية وفي القارتين الأوروبية والأمريكية ، حيث أنني مازلت مقتنعا بأن الحجة صالحة ، فإني اعتقد أنها تطلبت توضيحا أكثر ايجازا وإيضاحا ، وقد حاولت ذلك في الخاتمة الجديدة .

وأخيرا إن المصادر والمراجع القديمة التي كانت تاريخية محضة قد

روجعت لتشمل الأعمال التاريخية التي ظهرت منذ تمت كتابة النسخة الأصلية من الكتاب ، وهي معلمة بعلامة نجمية ، ولكن السعي وراء الفترة الألفية السعيدة هو ملك للدراسة المقارنة للفترة الألفية بالدرجة نفسها على الأقل التي لدراسة تاريخ العصور الوسطى ، وفي ذلك المجال أيضا إن تقدما كبيرا جدا قد حدث في السنوات الأخيرة وقد اردفت ثبت المراجع والمصادر بنخبة من أسماء الكتب الجديدة والآراء ، معظمها يتعلق بمعتقدات الجنس البشري وعاداته وبالنواحي الاجتماعية ، وكثير من هذه في ذاتها ، تحوي مصادر أكثر تمكن القارئ المهتم من الاستكشاف الي مدى ابعد في هذا الحقل الصعب ، وذي الأهمية الحيوية مع ذلك .

جامعة سدسكس:ن • ك

شباط ١٩٦٩

تقديم

مجال هذا الكتاب

لقد كان المعنى الأصلي « للآلفية » ضيقا ودقيقا ، وكان للمسيحية دائما إيمان بالأخرويات (البعث والحساب) بمعنى المذهب المتعلق (بالآلزمة الأخيرة) أو (الأيام الأخيرة) أو (الحالة الأخيرة للعالم) وكانت الآلفية المسيحية ببساطة أمرا يختلف عن الإيمان المسيحي بالأخرويات وهي تشير إلى الاعتقاد الذي يحمله بعض المسيحيين حول سلطة سفر رؤيا يوحنا (٢٠ - ٤ - ٦) أنه بعد المجيء الثاني للمسيح سيقوم مملكة مسيحية على الأرض وسيحكمها لمدة الف عام قبل الحساب ، وطبقا لسفر رؤيا يوحنا سيكون مواطنوا هذه المملكة من شهداء المسيحية الذين سيبعثون لهذه الغاية قبل الف سنة من البعث العام للموتى ، ولكن المسيحيين القدماء فسروا بالفعل هذا الجزء من النبوءة بمعنى متحرر أكثر منه حرفي ، ساووا فيه بين الشهداء والمؤمنين الذين يعانون - بمعنى أنفسهم - وتوقعوا المجيء الثاني في حياتهم ، وفي السنوات الأخيرة أصبح شائعا بين علماء أعراف وعادات ومعتقدات الإنسان ، وعلماء الاجتماع وإلى حد ما بين المؤرخين أيضا استعمال الآلفية بمعنى أكثر تحسرا ، وأصبحت الكلمة في الواقع ببساطة عنوانا موائما لنمط معين من الخلاص وهذه هي الطريقة التي ستستعمل بها في هذا الكتاب .

وتصور طوائف أو حركات الآلفية دائما الخلاص ب :

- أ - جماعي : بمعنى أنه يستمتع به المؤمنون بشكل جماعي .
- ب - أرضي : بمعنى أنه سيتحقق على هذه الأرض وليس في أي سماء عالمية أخرى .
- ج - وشيك : بمعنى أنه سيأتي سريعا وفجأة .

د - جملة : بمعنى انه يحول كلية الحياة على الأرض حتى أن
الشريعة الجديدة لن تكون مجرد تحسين للحاضر بل الكمال نفسه .
هـ - معجزا : بمعنى انه سينجز بعوامل خارقة للطبيعة او
بمساعدها .

وحتى ضمن هذه الحدود هناك بالطبع مجال لتنوع غير محدود
(ص ١٤) وهناك طرائق ممكنة لاحصر لها لتخيل الفترة الالفية
والطريق إليها . واختلفت الطوائف والحركات الالفية في المواقف من
العذوانية الأكثر عنفا الى الأخف سلمية ، ومن الروحانية الأكثر رقة
الى المادية الدنيوية الراسخة ، وقد اختلفت أيضا بدرجة كبيرة في
التركيب الاجتماعي والوظيفة الاجتماعية .

وكان هناك بالتأكيد تنوع كبير بين الطوائف الالفية والحركات في
أوروبا العصور الوسطى ففي أحد الأطراف كان هناك ما يدعى
« الروحانيون الفرنسيون » الذين ازدهروا في القرن الثالث
عشر ، وقد جاء هؤلاء النساك الزاهدون الأقوياء بشكل رئيس من
خليط من العائلات النبيلة والمشتغلة بالتجارة التي شكلت الطبقة
المهيمنة في المدن الإيطالية ، وكان العديد منها يتخلى عن ثرواته
ليصبح أفقر من أي شحاذ ، وفي تخيلاتهم كانت الفترة الالفية تعني
عصرا للروح حيث يتوطد الجنس البشري كله في الصلاة ، والتأمل
الصوفي والفقر الإرادي .

وفي الطرف الأخر كانت الطوائف الالفية المختلفة والحركات
التي تطورت بين الفقراء الذين لا أصل لهم في المدن والريف ، وكان
فقر هؤلاء الناس أي شيء إلا أن نقول تطوعيا ، وكان نصيبهم عدم
الأمن الشديد القاسي ، وكانت الفيتهم عذيفة فوضوية ، وفي بعض
الأحيان ثورية فعلا .

ويعالج هذا الكتاب الالفية التي ازدهرت بين الفقراء الذين بلا
جذور في أوروبا الغربية فيما بين القرن الحادي عشر والقرن السادس
عشر ، والظروف التي شجعت عليها ، ولكن إذا كان هذا هو

الموضوع الرئيس فهو ليس الوحيد ، لأن الفقراء لم يوجدوا عقائدهم الالفية الخاصة وإنما تلقوها ممن كانوا أنبياء أو مخلصين ، وهؤلاء الناس كان العديد منهم أعضاء سالفين في الكهنوت الأدنى ، وبدورهم أخذوا أفكارهم من أكثر المصادر تنوعا ، وكانت بعض التخيلات الالفية موروثه من اليهود والمسيحيين الأوائل ، والأخرى من راعي دير رهبان القرن الثاني عشر يواكيم أوف فيور Joachim of Fior ، وكان بعضها ثانية متصلا بالبدع الباطنية الموروثة المعروفة بأخوة الروح الحرة ، وسيفحص هذا الكتاب كلا من كيفية نشوء الهياكل الأساسية لهذه المعتقدات الالفية المختلفة وكيف تبدلت خلال انتقالها الى الفقراء .

إن شعور القوة في عالم الالفين وعالم القلق الاجتماعي إن لم يتصادف بل تراكب ، وكثيرا ما حدث أن قطاعات معينة من الفقراء كانت في قبضة بعض « أنبياء » الالفية ، وعليه فإن الرغبة العادية لدى الفقراء لتحسين الأحوال المادية لمعيشتهم أصبحت متمازجة مع تخيلات عالم تعاد ولادته في البراءة ، من خلال رؤيا لمذبة ملحمة أخيرة ، وكانت الخيالات الشديدة تنسب وتربط بصور مختلفة باليهود أو الأغنياء الذين يباعدون ، وبعدها سيقوم القديسون - أعني الفقراء نوي العلاقة - مملكتهم ، وهي عالم بلا معاناة أو خطيئة (ص ١٥) .

وبفعل الإلهام بمثل هذه التخيلات يختلف كثير من الناس الفقراء الذين يوظفون في المشروعات تماما عن الثائرين المعتادين من الفلاحين والحرفيين بأهدافهم المحلية المحدودة ، وستحاول خاتمة هذا الكتاب توضيح خصائص هذه الحركات الالفية لفقراء العصور الوسطى ، وسوف توحى أيضا بأنها في نواح معينة كانت نواة منذرة ببعض الحركات الثورية الكبيرة في القرن الحالي .

ولاتوجد دراسة أخرى شاملة لهذه الحركات التي تميزت بها القرون الوسطى ، هذا ولقيت الطوائف الدينية الأكثر تزمنا التي ظهرت واختفت عبر العصور الوسطى في الواقع اهتماما كبيرا ،

ولكن اهتماما اقل قد اعطي لقصة كيف انه حدث مرات ومرات في حالات سوء التوجيه الجماهيري والقلق أن المعتقدات التقليدية حول عصر ذهبي منتظر أو مملكة للخلاص كانت تخدم كوسائل للطموحات الاجتماعية والخصومات ، ومع عدم وجود نقص في الدراسات الرائعة التي تعالج حلقات فردية أو نواح ، بقيت القصة ككل غير محكمة ويهدف الكتاب الحالي عند هذا الحد الى ملء الفراغ :

ولفتح هذا المجال الذي لم يكتشف بدرجة كبيرة لزم تمشيط مئات عديدة من المصادر الاصلية في اللاتينية واليونانية والفرنسية القديمة ، فرنسية القرن السادس عشر والمآنية العصور الوسطى والقرن السادس عشر العالية والدنيا منها واستغرق البحث والكتابة إجمالاً نحو عشر سنوات ، وبسبب ذلك فإنها بدت طويلة بدرجة كافية لأن اقرر على مضمض أن أحد من التحري في شمال ووسط أوروبا لا لأن عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى ليس لديه مشاهد باهرة بصورة مماثلة أو مساوية لتقدمها ، ولكن لأنه بدا لي ان البحث الاكثر شمولا جغرافيا اقل أهمية مما ينبغي بذله من جهد ودقة يمكن أن أقوم بها بالنسبة للمنطقة المغطاة .

وقد توفرت المادة الخام من المصادر المعاصرة الكثيرة التنوع : حوليات ، تقارير ، تحقيق لمحققين ، وإدانات أطلقها البسابت والاساقفة والجامع والأجهزة الدينية ، والذشرات الهجومية ، والرسائل وحتى الأشعار الغنائية ، ومعظم هذه المواد كان يصدرها رجال الدين الذين كانوا معادين للمعتقدات والحركات التي تولوا وصفها ، ولم يكن سهلا دائما معرفة الاضافات والتحريف غير المقصود أو التشويه المقصود ، ولكن لحسن الحظ ان الجانب الآخر أيضا انتج نصوصا أدبية رئيسه ، نجا كثير منها من الجهود المتفرقة للسلطات المدنية والكندية لتدميرها ، وعليه كان من الممكن مراجعة المصادر الاكليريكية ليس فقط بمقابلتها ببعضها بعضا ، بل بمقابلتها أيضا مع البيانات المكتوبة لعدد ذي شأن من متنبئي الفترة الالفية (ص ١٦) والبيان المقدم هنا هو حصيلة عملية طويلة لجمع

- ١٤٢٤ -

ومقارنة وتقويم وإعادة تقدير حشد كبير من الأدلة ، وإذا كان بشكل رئيس بياناً غير متردد ، بسبب أن كل الشكوك الكبيرة تقريبا ، والأسئلة التي أثرت أثناء سير العمل قد أجابت نفسها بنفسها قبل النهاية ، فإن الشكوك التي مازالت باقية قد أشير إليها بالطبع •